إلى الإسلام من جديد

(٣)



وحيد الدين خان

عليكم بسنتي

إلى الإسلام من جديد
(٣)

عليكم بسنتي

وحيد الدين خان

الطبعة الأولى
١٩٩٢م - ١٤١٣هـ
- القاهرة -

سنة الرسول

إن أهمية السنة في الدين بالغة جداً ، فكل ما قاله النبي أو عمل به هو معيار للمسلمين ومقياس لعملهم ، إذ يلزم علينا – نحن المسلمين – أن نطبق سنته ﷺ في كافة ميادين الحياة ، وأن نقلده في الأمور كلها ، ففي اتباع سنته يكمن سر النجاة في الدنيا والآخرة .

وفي أوساط المسلمين وفاق حول تلك الأمور ، فليس هناك من يخالف في حجية السنة في التشريع الديني ، غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو : ما هي حقيقة هذه السنة ؟ هناك مفاهيم خاطئة قد تبناها المسلمون – بطريق شعوري أو غير شعوري – فيما يتعلق بالسنة . فالسنة – في حد ذاتها – هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل ، ولكن – في الواقع – قد صاغ المسلمون بأنفسهم فهرساً للسنة يتضمن بعض الأشياء الثانوية نسبياً في حياة

النبي ﷺ ، فمن يهتم بذلك الفهرس يطلق عليه بأنه متبع للسنة ، بينما الشقة بعيدة بينه وبين أتباع السنة الحقيقية الأصلية ، ولنضرب لذلك مثلاً يكشف القضية بوضوح :

روي عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان في بيتها فدعا وصيفة له أو لها فأبطأت فاستبان الغضب في وجهه فقامت أم سلمة إلى الحجاب فوجدت الوصيفة تلعب ، ومعه سواك فقال : لولا خشية القود يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك[1] .

هذه الرواية تشير إلى أن النبي ﷺ حينما كان جالساً في بيته كان يحمل في يده سواكاً ، وقد استنتج بعضهم من هذا أن السواك كان محبباً إلى النبي ﷺ إلى حد أنه لا يفارقه حتى لحظة واحدة . وتحت وطأة هذا الحماس لأتباع السنة ، جعلوا يعولون على السواك ويولونه اهتماماً بالغاً وذلك بوضعه في الجيب حتى يتمكنوا من استخدامه متى أرادوا ، ولكي لا تفوتهم سنة السواك ولو مرة واحدة .

(١) الأدب المفرد ، باب قصاص العبد : ص ٢٩ .

إن هذا الاهتمام المبالغ فيه بالسواك ، اهتمام لا يوجه إليه أي نقد أو اعتراض . فالسواك سنة حقاً ، حتى أن النبي ﷺ بيّن أنه : « **لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك** » . ومن ثم فمن اهتم بالسنة فقد اتبع السنة حقاً ، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل الحديث المذكور آنفاً يحتوي على أمر السواك فقط ؟ الحقيقة أنه يتضمن سنة أخرى لا تقل أهمية عن السواك ، بل هي أكثر أهمية من السواك ، والمؤسف أن الناس تمسكوا بالسواك ونحَّوْا الأخرى جانباً . شأن المسلمين في ذلك شأن ذلك الرجل الذي حصل على فاكهة ، فأخذ قشرتها ورمى بلبها .

لنقف قليلاً ، ونتأمل هذا الحديث . إنه يحتوي على أمرين اثنين :

● **أولهما** : أن النبي ﷺ كان جالساً في بيته وكان بيده سواك .

● **وثانيهما** : أنه استبان الغضب في وجهه ﷺ وكان على وشك أن يضربها بالسواك لولا أنه تذكر فوراً قبضة الله

في الآخرة ، ومن ثم أعرض عن إلحاق الأذى بها فاستعمال السواك لتنظيف الأسنان سنة ، وكذلك تغليب خوف الله على العقل إلى حد أنه رغم حدة الغضب عند المرء ورغم مقدرته على تحقيق ما يريد ، فهو يعزف عن إلحاق الأذى بالآخرين ، ويتجنب الضرب ولو بأبسط الأشياء كالسواك ، فهذا سنة أيضاً . ولكن المؤسف أن المسلمين يجهلون هذا الجانب البارز من الحديث ويتمسكون بالسواك فحسب .

وهناك مئات الآلاف في أوساط المسلمين ممن يتبعون سنة السواك ، أما سنة كظم الغيظ وكبح جماح الغضب ، والصبر على الأحوال غير المرضية ، والإعراض عن الأنشطة القمعية مع القدرة عليها ، قد أصبح شيئاً نادراً ، لا نجده إلا في قلة من الناس .

إن القرآن – من خلال آياته العديدة – يحث ويحض الناس على اتباع سنة الرسول إلا أن الأمور التي تحظى باهتمام بالغ من قبل المسلمين باسم السنة ، لا يحمل القرآن

أدنى إشارة إليها ، بينما الأنواع الأخرى من السنة والتي وردت في القرآن بغزارة قد أخرجها المسلمون من قائمة اتباع السنة ، وهذا مثال على ذلك .

إن جانباً من سورة الأحزاب يلقي ضوءاً على غزوة الأحزاب التي حدثت سنة (٥ هـ) وقد استنفر مشركو مكة ما يقرب من اثني عشر ألف مقاتل تحركوا صوب المدينة قاصدين الهجوم عليها ، ورغم أنه لم تنشب الحرب بين الطرفين إلا أن الحصار المشدد حول المدينة ظلّ قرابة شهر . وقد ورد في القرآن : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾ [الأحزاب : ١٠ ، ١١] .

في مثل تلك اللحظة الحرجة بدا الضعف بين كثير من ضعفاء الإيمان ، إذ لم يستطيعوا البرهنة على الصبر والاستقامة ، وتتناول السورة شأن هؤلاء الأفراد أيضاً ، وورد فيما يتعلق بهذا الشأن : ﴿ **لقد كان لكم في**

رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

إن الآية توضح أن الحالات المتوترة التي لحقت بالمسلمين أثناء الحصار الذي فرضه الأحزاب ، والشدائد التي كانت تشكل خطراً على المسلمين لم يكن النبي بمعزل عنها بل كان في وسطها مشاركاً فيها ، بل كان الوضع بالنسبة للنبي أكثر خطورة ، فهو الهدف والغاية الأصلية لذلك الحصار . إلا أن النبي كان صابراً مثابراً متصدياً لكل ما يعترضه بكل ثبات ورباطة جأش ، لقد صبر على كل رخيص وغال نازلاً تحت إرادة الله ابتغاء مرضاته . إن هذا العمل الجبار الذي يقدمه النبي ﷺ ينبغي أن يتبناه المسلمون في حياتهم ، كما يلزم عليهم أن ينهجوا نفس نهجه .

كأن السنة التي تضمنتها الآية هي سنة الصبر والمثابرة ، أي تحمل كافة أشكال المعاناة في سبيل الدين والصمود أمام كل الصعوبات ببذل أقصى ما يملك المرء من

جهد . إلا أن الوضع اليوم قد انقلب رأساً على عقب ، فإنك لو أخذت تذكر سنة الصبر والمثابرة ، لرأيت الوجوه مندهشة مبدية إعجابها ، كأنها لا تكاد تصدق أن ذلك من السنة ، ولعل ذلك يرجع إلى الدعاية الخاطئة التي جعلت السنة قاصرة على أمور محددة كاللحية والسواك ، وشرب الماء باليد اليمنى ، والدخول إلى المسجد بالرجل اليمنى ، وتقديم اليسرى عند الخروج منه ، إلى غير ذلك .. ومثل هذه الأمور قد اشتهرت في أوساط المسلمين باسم السنة ، وهم يتمسكون بها ويولونها اهتماماً بالغاً ، بينما الأمور الأخرى لا تتمتع بأية أهمية لديهم . بل إنهم قد أخرجوها من خارطة أذهانهم ، ومن ثم هم لا يحسون بضرورة وضعها في فهرس أتباع السنة .

إنك تجد كثيراً من الناس ممن يهتمون بأمر اتباع السنة ويولونها اهتماماً بالغاً ، ولكنك تجد الأشياء التي يجدر أن تحظى بالأهمية الرئيسية والتي تمثل محور وجوهر الدين ، وقد فهمها المسلمون على أنها خارج قائمة السنة — سواء

أكان ذلك بطريق شعوري أو غير شعوري – مما أسفر عن عدم ظهور فائدة اتباع السنة رغم الاهتمام البالغ بها .

وسأعرض هنا تجربة شخصية قد حدثت لي يتضح من خلالها الفرق بين هذين النوعين من السنة .

لقد كنا في حاجة إلى كاتب آخر لمجلة الرسالة الشهرية ، ووقع الاختيار على رجل للقيام بتلك المهمة ، وأكد أنه سوف يقوم بكتابتها في بيته ثم يزودنا بها شيئاً فشيئاً . فأعطيناه بعض الموضوعات ، وتعهد على أنه سيكمل المهمة خلال خمسة عشر يوماً ثم يأتينا بها .

وحين حضر هذا الكاتب إلى مكتبي كان موعد تناول الطعام قد حان ، فتمّ إحضار الطعام ووضع على المنضدة ، وطلب من الضيف تناول الطعام ، لكنه كان متردداً كأنما تورّط في مأزق ما ، وعندما سألناه عن سبب امتناعه ، صرح قائلاً : إن الأكل على المنضدة أمر مخالف للسنة ، لذا بدا متردداً ممتنعاً عن الأكل ، واستجابة لرغبته أحضرنا له سجادة فجلس وتناول الطعام ثم ذهب

بموضوعات المجلة .

كنا نعلّق عليه الأمل ، على أن يكمل المهمة في مدة لا تتجاوز أسبوعين ليوافينا بها في الموعد المحدد ، وقد انتظرناه ونحن متلهفين حتى مضى شهران متتاليان ، ثم كلفنا رجلاً بمهمة البحث عنه وانتشال الموضوعات التي أعطيناها له من بين يديه ، وحين وصل الرجل بصعوبة إلى مكانه في غرفة كان يقطنها مع زميل له ، عثر على زميله في الغرفة فأعلمه بأنه غير موجود ، وأنه ذهب إلى منزله في الريف ليشارك في قتال جرى بين قبيلته وقبيلة أخرى ، فأصيب بجروح خطيرة مما أسفر عن نقله إلى المستشفى ، وهو الآن تحت العلاج .

وواصلنا البحث ، فبعثنا برسالة إلى عنوانه الأصلي في الريف ، وعلمنا بأن المعلومات السابقة كانت صحيحة ، وأخيراً ، وبعد عدة شهور عثرنا على بيته الريفي ، والتقى به الرجل المكلف من قبلنا ، فأعاد الموضوعات كما أخذها دون أن يكتب منها سطراً واحداً .

والآن نقف قليلاً .. لنمعن النظر في هذه الحادثة .

رغم أني لا أشاطره الرأي في أن الأكل على المنضدة هو مخالف للسنة ، إلا أنه لو سلمنا بذلك لوجدنا كاتبنا قد طبق سنة وترك سنتين هما أهم منها بكثير . وطبقاً لما خيل إليه ، فإن الأكل على السجادة من السنة ، وقد أدى تلك السنة ، إلا أنه في نفس الوقت ، لم يحفل بالسنة البالغة الأهمية ، ألا وهي سنة الوفاء بالوعد وسنة الصبر . فهو حسب ما قطع على نفسه من وعد على أنه سيكمل مهمته خلال أسبوعين ليوافينا بها إثر ذلك ، كان لزاماً عليه أن يفي بوعده ، وفي حالة عدم قدرته على ذلك لعذر أو حادث عرض له ، كان يجب عليه أن يحيطنا علماً بذلك ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، فلم يف بوعده ولم يبلغنا بعذره أيضاً . وإذا كان هناك بعض الخلافات بينه وبين قبائل أخرى كان بإمكانه أن يصل إلى حلول سلمية عن طريق تبني أسلوب الصبر والإعراض ، إلا أنه لم يفعل ذلك أيضاً ، مما أسفر عن إصابته بجروح وملازمته للمستشفى عدة شهور .

إن أخانا الكاتب هذا، قد تخرّج من مدرسة إسلامية أهلية . وكان يملك رصيداً معرفياً هائلاً حول السنة ، إلا أن العقلية التي نشأت لديه حول السنة ، كانت تضم بعض الأشياء الفرعية والجزئية كإعفاء اللحية قدر قبضة اليد ، والأكل على السجادة ، وشرب الماء باليد اليمنى ، وكان بمعزل عن شعوره أن الوفاء بالوعد ، والصبر ، والإعراض عن خوض الصراعات أيضاً من السنة . وهذا هو السبب الذي جعله متشدداً في تطبيق سنة الأكل على السجادة ، بينما لم يشعر بحاجته إلى تطبيق سنة الوفاء بالوعد والصبر والإعراض .

هذا هو المأزق الذي تورطت فيه الأمة بكاملها ، إذ هناك العديد ممن يقرّون بأهمية السنة ويتلهفون إلى اتباعها ويبدون عزيمة صارمة إزاء التمسك بها . إلا أن الأشياء التي يُخيّل إليهم بأنها من السنة هي في الحقيقة بعض الآداب ، فهم يتلهفون إلى اتباع تلك الآداب الجزئية ويولونها اهتماماً بالغاً ، وما عدا ذلك من السنن التي أضفى عليها النبي ﷺ

تأكيداً مبالغاً وحضّ على التمسك بها لا تجد أي صدى أو اهتمام لدى متبعي السنة ولعل سبب ذلك يعود إلى أنهم لا يعرفون تلك الأشياء باسم السنة .

لو أنك ذكرت في إحدى التجمعات تلك السنن المعروفة فلا أحد يحسّ بغرابتها ، أمّا إذا خضت في ذكر السنن الأخرى ، كسنة التفكّر ، وسنة الاعتبار ، وسنة الصبر ، وسنة الإعراض ، وسنة النصح ، وسنة الدعوة ، ترى الإعجاب قد بدا في عيون الناس ، كأنك تعرض عليهم أمراً غريباً .

يقول النبي ﷺ : « **بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء** » .

إن هذا الحديث يتناول غرابة الدين ، وليس المراد بذلك أن الناس جميعاً سيتركون الصلاة ، أو سيختفي المؤدّون لفريضة الحج ، كيف ذلك وقد ثبت عن طريق أحاديث أخرى ، بأن مقيمي الصلاة والمتمسكين بالصيام سيظلون على وجه الأرض إلى أن تأتي القيامة . ولكن المراد

بغرابة الدين ذلك الذي كشفنا عنه في المثال الذي أسلفنا ذكره ، أي أن تصبح سنة الأكل على السجادة أو الحصير معروفة لدى الناس ، بينما سنة الوفاء بالوعد وسنة الصبر والإعراض غريبة لديهم .

وهناك بعض الأمور التي تعد سنة بالنسبة إلى حقيقتها وجوهرها ، وليست سنة بالنسبة إلى مظاهرها الخارجية ، وفي هذه الحالة تمسك المسلمون بهيكلها الظاهري معتقدين أنهم يطبقون السنة ، بينما السنة في هذه الحالة تكمن في الحقيقة وليس في الصور الخارجية .

لنضرب مثالاً على ذلك ، هناك كثيرون – في أوساط المسلمين – ممن يستحضرون بعض الكلمات ويرددونها صباح مساء ، معتقدين أنهم بذلك يمارسون الأذكار المسنونة ، في حين أن الأذكار المسنونة اسم للكيفيات المسنونة وليست بعض ألفاظ أو جمل معينة . إن ذكر النبي ﷺ نفسه ، كان عبارة عن تذكر الله ، وكان قلبه مفعماً دوماً بذكر الله . ونتيجة لتلك الحالات النفسية

التي يعيشها ﷺ كانت تخرج على لسانه بعض الكلمات المعبرة عن ذلك القلب المفعم بخشية الله ورجاء رحمته ، إنها تشبه الذكر إلا أنها كانت من صميم قلبه وأعماق فؤاده ، وليست ترديداً لفظياً ظاهرياً فحسب .

إن النبي ﷺ كان يتمتع بمعرفة عميقة فيما يتصل بالله ، جاء في الحديث أنه كان دائم التفكر ، أي أنه كان مستغرقاً دوماً في التفكر وتذكر الله . إنه كان يذكر نعم الله التي لا تحصى عدّاً ، وتغمر قلبه عاطفة الشكر ، وكان يستحضر عظمة الله وهيبته ، وقلبه مفعم بالإحساس بكبرياء الله . فإذا كان كذلك كان يجري على لسانه تلقائياً ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . وهكذا كان ذكر النبي ﷺ ، كان كل ذكر ترجمة لما يجيش في أعماق قلبه . هذه هي حقيقة الأذكار التي يطلق عليها الأذكار المسنونة .

المحبة أم الطاعة :

كان هناك شاعر باللغة الأردية ، بارع في وصف

النبي ﷺ ينظم القصائد المطولة الشيقة بعد أن يزينها بألفاظ مزخرفة فضفاضة ، وكان يلقيها في الحفلات ليكسب إعجاب الحاضرين ، إلا أنه لا يقيم الصلاة ولا يؤدى فريضة الصيام والزكاة رغم غناه المفرط ، ولم يؤد فريضة الحج أيضاً ، لكنه يطلق على نفسه عاشق الرسول بكل فخر واعتزاز رغم لا مبالاته فيما يتصل بطاعته للرسول .

وتجد كثيراً في أوساط المسلمين ، مثل هذه النوعية ، ممن يبرعون في وصف النبي ومدحه بألفاظ شيقة وجذابة ، ويقيمون لذلك حفلات المولد الشريف ويولونها اهتماماً بالغاً ، إلا أنه لا تبدو فيهم أية رغبة في اتباع الرسول وطاعته ، ومثل هذه المحبة لا قيمة لها في الدين ، حيث يرحب الدين بتلك المحبة التي تصحبها الطاعة والاقتداء ، يقول الله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقد عقب المفسرون على هذه الآية بقولهم : إن إظهار الحب لله ولرسوله لا

يكفي وحده بل يجب على المحب أن يسير سير من يحب وينهج نهجه . (فمن ادعى المحبة مع مخالفة الرسول ﷺ فهو كاذب)[1] .

حدث لي مرة أن ألقيت محاضرة في لقاء أقيم بمناسبة السيرة النبوية وقد سلطت الضوء خلالها على نمط حياة النبي ﷺ ومنهجها وأسلوبها ، وقد لقيني أحد المستمعين معرباً عن وجهة نظره حول محاضرتي قائلاً : إنك لم تذكر شيئاً حول السيرة النبوية أثناء المحاضرة ، فأجبته بأني قد أوضحت أسلوب حياة النبي ﷺ ومنهجه ، وهذا كل ما يعنى بالسيرة ، إلا أنه رفض ذلك قائلاً : كلا . السيرة أن تبين معجزات النبي ﷺ وكراماته ، وتبين قصص عشق النبي وغير ذلك ، وقد خلت محاضرتك من هذه الأشياء تماماً .

إنه خطأ فاحش ، هذا الذي تورط فيه المسلمون ، لقد فهموا غير السيرة سيرة وغير السنة سنة . إن كل ما

---

(١) التفسير المظهري / ج ٢ : ص ٣٧٠ .

يعنى باتباع النبي أن نجعل حياته أسوة وقدوة لنا، أما الكلمات المزخرفة والجذابة فهي لا تجدي شيئاً وليست كافية بالنسبة للايمان بالرسول .

ورد حديث في كتب السنة مع اختلاف الروايات من حيث اللفظ ، هذا جزء منه : (استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم فغضب النبي ﷺ حتى رئي في وجهه ، ثم قال : « **لا تفضلوا بين أنبياء الله** »)[2] .

إن تفضيل نبي على آخر أمر يتعلق بالله فقط ، ولا دخل لنا فيه ، إنه لا يدخل في إطار مهمتنا إثبات أفضلية نبي على آخر لنفتخر ونعتز به ، إن كل ما يهمنا أولاً وأخيراً هو أن نطبق أوامر الرسول ، وأن نجعله أسوة لمسار حياتنا .

---

(٢) جامع الأصول / ج ٨ : ص : ٥١٣ ، ٥١٤ .

إن النعم التي نرجو حصولها ستكون نتيجة لاتباع الرسول وليس بناء على ما ألقينا من محاضرات فخرية وشيقة حول عظمة الرسول ، ولا على اعتباره عنواناً لاعتزازنا وفخرنا القومي .

سأعرض هنا بعض الأحاديث التي تبرز منهج وأسلوب حياة النبي ، والنموذج الذي تركه لنا فى كافة ميادين الحياة :

عن أنس قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل** ، ثم قال : **يا بني وذلك من سنتي ومن أحب سنتي فقد أحبني** » .

إن صلتنا بسنة الرسول ﷺ ليست باللباس أو الشعر أو السواك فحسب ؛ بل يتجاوز مداها إلى كافة مجالات الحياة .

ما هو الأسلوب أو النمط الذي يمكن اختياره للتعايش مع الناس ؟ السنة هي التي تدلك على ذلك . فهي تؤكد

على أن نفسيتك ينبغي أن تكون طاهرة وخالية من النزاعات العدوانية ضد الآخرين ، وأنه لا شك حين يكون المرء بين الآخرين فإنه سيواجه أنواعاً من المعاملات والسلوكيات ، والذي قد يؤدي إلى استيائه وتضايقه وغضبه ، فلا غرابة في ذلك ، فهو أمر طبيعي ، لكن سنة النبي ﷺ في ذلك هي أن تكبح جماح تلك النزعة وتتغلب عليها ، وتحدّ من سطوتها .

إن الإعراض عن الشكوى ، وقمع نفسية الاستياء ، وغضّ الطرف عنها ، والعفو والصفح عن الأخطاء ، وتحمل المشاقّ ، والصبر عليها ، بدلاً من إلقاء المسئولية على الآخرين ، هذه هي السنة النبوية ، فمن أحبّ سنته ﷺ يكون معه في الجنة .

أمّا الذين يبدون لا مبالاتهم حول نمط وأسلوب حياة النبي ، ويقتفون رغبات النفس وهواها ، والذين يغرسون في أنفسهم نزعات سلبية بدلاً من النزعات الإيجابية ، فإنهم سوف يبعدون عن المكان الذي يقطنه الأنبياء والصالحون ،

لأنهم لم يحسنوا حين تَبَنَّوْا أساليب غير تلك التي تبناها الأنبياء والصالحون .

الفلاح في سنة النبي :

« لازلتم منصورين على أعدائكم مادمتم متمسكين بسنتي فإن خرجتم عن سنتي سلّط الله عليكم من لا يخافكم ولا يرحمكم حتى تعودوا إلى سنتي » رواه مسلم .

إن الدين الذي تركه النبي ﷺ لا يعتريه أي نقص حتى يتطلب إلى إكمال ، وعلينا أن نتناوله كما هو . إن الجرأة على إضافة أو إنقاص شيء منه يسفر عن نشوب خلافات وصدامات بيننا وهو ذات الضعف والهزيمة .

إن النبي ﷺ علّمنا العقائد وما يتصل بها ، وعلّمنا أن الله واحد أحد ، وأنه هناك جنة وجهنم بعد الموت ، وأن الله سبحانه يوحي إلى أنبيائه بواسطة الملائكة وما إلى ذلك ، وهي عقائد يلزم علينا أن نتبناها ، كما نصّ على ذلك القرآن والسنة ، ولو خضنا فيها بأفكارنا البشرية وأدخلنا المباحث اللاهوتية أو الكلامية المبتدعة لنشأت آراء متضاربة

ومتناقضة مما يؤدي إلى تدافع أصحاب رأي معين مع أصحاب رأي آخر وهكذا .. كما دلّنا ﷺ على الأحكام المتعلقة بالعبادات ، وقد طبّقها في حياته ، ليكون لنا – في ذلك – أسوة ومنهاجاً ، ولم يبق لنا من خيار إلا أن نتمسك بها كما هي دون زيادة أو نقصان . ولكن الأمر ينقلب رأساً على عقب حين نذهب نخترع المسائل والأساليب الجديدة في العبادة ، لأن ذلك يؤدي حتماً إلى التفرقة والتشيّع وهو سبب ضعف الأمة واضمحلالها .

وقد أمرنا ﷺ أيضاً ، بالصبر والصفح عمن أسآء إلينا أو تسبب في مضايقتنا ، ففي مثل هذه الظروف لو قام أحد لينتقم ويأخذ الثأر من الخصم لأدّى إلى إذكاء نار العداوة والتناحر بين الطرفين مما يسفر في النهاية عن ضعف الأمة الإسلامية . أمّا فيما يتعلق بالحكومات والبسلطة ، فقد علّمنا ﷺ ألا نتطلع إلى المناصب ولا نطمع فيها ، لأن الناس حين يتطلعون إليها فإن ذلك سيؤدي إلى نتائج سيئة للغاية ، حيث تتقد نار العداوة بين المتنافسين وتنشأ جبهات

متعارضة في أوساط الأمة المسلمة . مما يؤدي إلى انهيار الأمة المسلمة وتقلصها بأيدي أفرادها . كما علّمنا النبي ﷺ بأن نجعل الآخرة هدفنا ونَعدّ الدنيا عابرة فحسب ، ولو جعل أفراد الأمة الإسلامية الدنيا هدفهم المنشود لتعدد المطالبون لشيء واحد ، فينشأ التنافس الذي يؤدي في النهاية إلى التناحر والصراع مما يثير الحسد والبغض وتأجيج نار العداوة والانتقام .

كيف كان يتكلم النبي ؟ :

إن نمط كلام النبي ﷺ وأسلوب تعبيره كان بيّناً واضحاً تقول عائشة رضي الله عنها : (ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ولكن يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه) . وفي رواية أخرى : (إنّ رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم كان يحدّث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه) (متفق عليه) .

إن كلام المؤمن هو كلام يخرج من أعماق قلبه مفعماً بخوف الله وخشيته موقناً أن كل كلمة يبوح بها

سوف لن تفلت من سجل الملائكة الذين كلفهم الله بهذا الأمر ، ويحسّ أنه سيلاقي ربه ليسأله عن كل ما تفوّه به . إن مثل هذه المشاعر المرهفة تغرس في الإنسان الإحساس بالمسئولية ، ومن ثم حين يرغب في التفوّه بكلمة يساوره الخوف والشعور بأنه إنما يفعل ذلك أمام الله وملائكته . إنّ مثل هذا الإحساس يعقد لسانه ويمسكه بلجام . إنه يفكر مليًّا قبل أن يبوح بأية كلمة ، وحين يبوح بها فإنه لا يغفل من أن يزنها بميزان دقيق . إن هيمنة رهبة الله عليه تنزع عنه سرعة كلامه وحدته ، والإحساس بالسؤال والحساب في الآخرة يقف دون إلقائه الخطب الحارة .

والحقيقة أن من تجتاح قلبه مثل هذه المشاعر المرهفة فلا مناص من أن يصبح رجلاً مجداً للغاية ، ومن يصبح هذا شأنه سيكون أسلوب كلامه هو نفسه الذي ذكرته عائشة في الحديث المذكور آنفاً .

الدعاء الحسن :

كان من سنة النبي ﷺ أنه عندما يطلب منه أحد

أن يدعو له ، يبادر بنفس تلك الكلمات التي استخدمها الطالب أثناء طلبه . قال أبو هريرة مرة ، طالباً من الرسول أن يدعو للأمه : (يا رسول الله ادع الله أن يهدي أم أبي هريرة) . وكان يضيف أحياناً - حسب الظروف - بعض الكلمات الرائعة ، إذ ثبت أن أبا هريرة جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ادع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين . فبادر النبي ﷺ بقوله : « **اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحببهم إليهما** » .

هذا ما كان من النبي ﷺ في الدعاء الحسن ، أما إذا طالبه أحد بدعاء سيء فكان يتخذ أسلوباً معاكساً تماماً ، فهو بدلاً من أن يدعو على أحد يبادر بالدعاء الحسن له . إن طفيل بن عمرو الدوسي قد اعتنق الإسلام على يدي النبي ﷺ حين كان بمكة ، ثم عاد إلى وطنه وباشر التبليغ في قبيلة دوس ، لكن محاولاته تلك لم تجد أي صدى بين أبناء قومه ، فعاد طفيل إلى النبي ﷺ مرة ثانية وبدأ يقول : يا رسول الله ادع على دوس . فماذا فعل الرسول ﷺ ؟ إنه لم يبحث القضية مع طفيل ، بل أخذ يدعو :

« **اللهم اهد دوساً** » وعندئذ عاد طفيل إلى وطنه وأخذ يدعو الناس إلى الإسلام ، فأقبل الناس عليه واعتنقوا الإسلام جميعاً ، وكان من بينهم أبو هريرة رضي الله عنه .

إن هذا المنهج الذي كشفت عنه هذه الوقائع إنما هو المزاج الأصلي للمؤمن ، إذ النفسية الإيمانية تتمنى الخير للآخرين ، ومن ثم فالمؤمن يتمنى للآخر ما يتمناه لنفسه ، إنه يحرص دوماً على هداية الآخرين ، لذا حين يرى أحداً يعرض عن دعوته ولا يستجيب له فإنه لا يدعو عليه ، بل على العكس من ذلك ، فهو يدعو الله أن يفتح قلبه للإيمان .

من هو المسلم ؟ :

قال النبي ﷺ : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » .

إن من يجد الله بالمعنى الحقيقي فإن ذاته تذوب تماماً أمام قدرة الله وجلاله ، ويلقي بنفسه أمام الله مرغماً ، ويضع نفسه في ذمة الله تعالى .

إن هذا الإرشاد النبوي يوضح أنماط سلوك مثل هذا الإنسان ، فمن يكون هذا شأنه ، فهو إنسان نموذجي ، ذكر الله مسيطر على قلبه دائماً ، وإن سلوكه كله يكون تحت مراقبة الإحساس بأن الله يراه ، وأنه لو سار في طريق لا يرضاه الله فإنه سيقع يوماً تحت قبضته فيسأله ويحاسبه .

إن مشاعراً كهذه تلجم لسان المرء فتمنعه من أذى الآخرين ومهاجمتهم وتجرد يد المسلم من القوة التي يبطش بها الآخرين ، وتجبره على ألا ينطق إلا كلاماً صادقاً ، ولا يرفع يده إلا لإقامة العدل ، وأن يقف دوماً إلى جانب الحق ، وليس إلى جانب الباطل .

إن هذه الدنيا تمثل قاعة امتحان ، أودع فيها الإنسان للامتحان الذي لا يتم إلا إذا كان الإنسان مخيراً بين أمرين . أما الشمس والقمر فليستا في حالة اختبار ، لأنهما لا تستطيعان السير إلا في مسار محدد ، بينما الأمر بالنسبة للإنسان مختلف تماماً ، إنه يتمتع بحرية كاملة في اتخاذ هذا المسار أو ذاك .

وإذا حللت الحديث من هذه الزاوية فإنك تخرج بنتيجة مؤداها أن الحديث ينص على أن المسلم هو من كانت لديه فرصة ليؤذي الآخرين بلسانه ، إلا أنه رغم ذلك يمسك لسانه خوفاً من الله ، والمسلم هو من كانت لديه المقدرة على أن يرفع يده على الآخرين إلا أن خوف الله يسيطر عليه إلى حدّ أنّ يده تمتنع عن أذى الآخرين .

إن المرء في هذه الدنيا بين دفتي العدل والجور ، والمسلم من يرجّح دفة العدل رغم أن أبواب الظلم مفتوحة على مصراعيها أمامه .

كلمة واحدة تكفي للنصيحة :

لقد أتى صعصعة بن معاوية – عمّ الفرزدق الشاعر المشهور – إلى النبي ﷺ ، فقرأ عليه النبي سورة (الزلزلة) حتى بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ فقال صعصعة ، بعد أن وعيها : حسبي أن لا أسمع غيرها . رواه أحمد .

وكان من عادة النبي ﷺ أنه يلقي على عاتق أحد الصحابة مسئولية تلقين الدين لحديثي العهد بالإسلام . وطبقاً لذلك ، فقد أدخل هذا الصحابي الجديد في ذمة علي رضي الله عنه ، إلا أنه بعد أيام قلائل من تردده على علي رضي الله عنه ، انقطع عن المجيء ، وافتقده النبي ﷺ في المسجد في مواقيت الصلاة لبضعة أيام ، فسأل عليًا عنه ، لأنه المسئول عن تعليمه ، فأجاب علي بأنه لا يأتيه أيضاً . فطلب النبي ﷺ أن يبحث عنه ويستفسر عن شأنه ، وأخيراً صادفه أحد الصحابة وهو يحمل رزمة من الأخشاب على كاهله ليبيعها في السوق ، وأخبره بأن النبي ﷺ كان يسأل عنه ، وعليه أن يذهب إليه ، فطوى الرجل طريقه إلى السوق وتعجّل في بيع أخشابه ، ثم أخذ طريقه إلى النبي ﷺ ، فسأله النبي عن سبب غيابه ، فأجابه بأنه كان يظن بأن تعليمه قد انتهى . فاستطرد النبي قائلاً ما معناه : لم يمر عليك إلا بضعة أيام فحسب فكيف تظن أن تعليمك قد كمل . فقال الصحابي : إنني حين عثرت على الآية :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة

شراً يره ﴾ قد تغير وضعي وأصبحت أشعر بأنني سوف أتحمل مسئولية كل ما أكسبه من حسنة أو سيئة ، صغيرة أو كبيرة . فإذا حدثني قلبي بأن هذا العمل خير وأنه سوف يجلب لي الثواب في الآخرة بادرت بفعله دون تردد ، وإذا وقعت في تردد إزاء عمل ما فإني أعرض عنه ولا أفعله . وبعدما سمع النبي منه ذلك قال له ﷺ : « **يكفيك هذا** .. » .

إن تابعياً كان يتحدث إلى تلاميذه حول خصال الصحابة وصفاتهم وأساليب حياتهم ، فقال : إن الصحابة لم يكونوا يبالغون في الصلاة أو الصوم مثلما تفعلون أنتم ، ولكنه شيء وقر في قلوبهم ألا وهو خوف الله وخشيته . فإذا ما أحس أحد بخوف الله في أعماق قلبه فكأنه استجمع الحسنات كلها ، ومن عجز في خلق تلك المشاعر في نفسه جعل بينه وبين الحسنات حجاباً . إن الذي ترتعد فرائصه من خوف الله يرى الله في الأمور كلها ، ومن ثم يراعي التواضع والإنصاف في معاملاته ، وعلى العكس من ذلك ،

من يرى الأمور من زاوية النظر الإنسانية ، التي لا تمت بصلة إلى الله ، فلا شيء يمكن أن يعوق طريق ظلمه وتمرده .

الحياة الإسلامية حياة مسئولة :

يقول النبي ﷺ : « **مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته** » .

إن الحيوانات تربط بالحبال ، بينما الإيمان ليس حبلاً في ظاهره ، لكنه حبل غير مرئي . والحيوان أن يظلّ رهين حبله لا يتجاوز الدائرة التي يبلغها الحبل ، وهو العمل نفسه الذي يقوم به المؤمن بإرادته الحرة ، وخوفه من الوقوع في قبضة الله الصارمة يمثل بالنسبة إليه حبلاً معنوياً يحدّ من أنشطته ويمسك به دوماً ، فلا يجرؤ على تجاوز الحدود التي رسمها له ربّه ، فيصبح عبداً معقوداً وليس حيواناً مطلق العنان .

إن الامتحان الحسّاس الذي يخوضه الإنسان في الدنيا ، هو أن يصبح بلا اختيار رغم تمتعه بحرية الاختيار

الكاملة ، فهو رغم أنه يستطيع أن يعيش حياة غير مسئولة يقيّد نفسه ويجعلها مسئولة بكل معنى الكلمة ، وهو رغم قدرته على الانتقام . يصفح ويعفو ، وحين تلقى أمامه كلمة صادقة فهو رغم قدرته على تكذيبها يخضع لها ويتبناها ، ويعدل وينصف دوماً رغم قدرته على الظلم ، ويعيد إلى الناس أموالهم رغم قدرته على الاحتفاظ بها . إنه بإمكانه ألا يحفل بأحد إلا أن خوف الله يمنعه من ذلك .

إنّ الله سبحانه وتعالى قد وضع حدوداً للأمور كلها ، على الإنسان ألاّ يتعداها ، فإذا أراد أحد أن يقيم رأياً على شخص ما ، فإن حدّه أن يكون رأيه مبنياً على الواقع لا على المظهر الخارجي ، ولا يحسن به أن يعتمد على التخمينات والقياسات في ذلك . وحدّ البحث عن لقمة العيش أن يتمّ ذلك عن طريق الكفاح وبذل الجهد بكل صدق وأمانة ، فما اكتسبه هكذا فهو له ، ولا يجدر به أن يجعل من الخديعة والنهب والسرقة وسيلة للعيش . وحدّ توجيه النقد للآخرين أن يتمّ ذلك في إطار أدلّة علمية

واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، فلا ينبغي لأحد أن يحكم على أحد دون دليل يثبت ذلك . وحدّ الحديث أن يتحدث المرء مراعياً الجديّة في حديثه ، ولا يحقّ له أن يفعل ذلك بطريق الشتم والسبّ .

إن الفرس المربوط بالحبل حرّ في الحدود التي يبلغها الحبل ، وهو مقيّد بعد ذلك . كذلك المؤمن حرّ في حدود المباح ومقيّد في إطار الممنوعات أو المحرمات ، فمن يعش ملزماً نفسه بهذه القيود سوف يحظى بالجنة ويفوز بها ، ومن تخلّى عن تلك القيود وتجاوزها فهو مجرم في نظر الله ، وتنتظره نار الله الموقدة التى لا ترحم .

الصبر على المكاره :

تروي عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد ؟ قال : **« لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشدَ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على**

وجهي فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال : يا محمد فقال ذلك فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً »[1] .

إن هذه الحادثة تلقي ضوءاً على منهج النبي وأسلوبه الواقعي ، فهو مهما عانى من الاضطهاد ، ومهما لحقه من أذى ، لم يكن يستخدم النزعات السلبية ، ولم تتقد فيه نار الثأر والكراهية . إنه يبصر المستقبل البعيد بدلاً من الحال ، ويركز نظره على تلك الوقائع التي ما زالت في طي المستقبل بدلاً من أن تكون الحوادث الحاضرة والعابرة موضع

(١) حياة الصحابة : ج ١ ص ٢٥٤ .

اهتمامه ، وسواء أكان الأمر يهمّ الفرد أو الامة ، فإن نبي الله ، في كل ذلك ، يتخطى مراحل الحماسة ويفكر مليّاً ، ويعمل غير عابئ بما لحقه من ضرر أو أذى .

يقول النبي ﷺ في حديث شريف : « **النكاح سنتي فمن أعرض عن سنتي فليس مني** » . وإذا كان النكاح من سنة النبي ﷺ فكذلك عدم الأخذ بالثأر وعدم الانتقام والإعراض عما يواجه المرء من معاناة ومشقات ، كل ذلك من سنة النبي ، ومن أعرض عن سنة النبي فليس منه . والحقيقة المؤسفة هي أننا إذا أعرضنا عن السنة النبوية هذه فلا يحق لنا أن نكون من أمته ، ولا تشملنا شفاعته . فمن لم يستطع أن يتبع سنة النبي ﷺ في الحياة الدنيا فلا يستطيع أن يكون رفيقه في الحياة الآخرة .

نصيحة صحابي :

قال عبد الله بن مسعود : (اطلب قلبك في ثلاثة مواطن ، عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة ، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن

يمنّ عليك بقلب فإنه لا قلب لك) .

إن القلب وضع في صدر الإنسان ليكون مهبطاً للتجليات الربانية ، كأن القلب هو بيت ذكر الله ولذا حين يتلى القرآن على المرء يلزم أن يذوب قلبه وتأخذه الرجفة ، وحين يذكر الله يلزم أن ترتعد فرائصه من شدة ما يحس به من عظمة الله ، وحين يخلو بنفسه ليناجي ربه يلزم أن تمرّ به تلك المشاعر والأحاسيس التي يحتاج إليها قلب من يذكر الله . فإذا كان هذا شأن المرء ، فهو دليل على أن به قلباً يخفق وينبض وأنه ما زال يتمتع بالحيوية والنشاط . وإذا كان المرء على عكس ذلك ، فهو دليل على أن قلبه قد ذبل ومات ، أو أنه لا يملك قلباً يتسع لهبوط تجليات الله ، فتلك اللحظات التي تتحرك فيها خيوط القلب وأسلاكه لا يستيقظ فيها قلبه ولا تنبض فيها روحه ، وتخفق المواقف الحساسة التي تقرّب العبد من ربّه في إيقاظ مكامن قلبه . ليعلم مثل هذا الإنسان أنه فقد أغلى ما كان يملك وهو القلب ، لذا عليه – أولاً وأخيراً – أن يسأل الله أن يخلق فيه قلباً خافقاً نابضاً يتسع لتجليات الله .

الفهـــــــرس

عنوان المؤلف
ISLAMIC CENTRE
C - 29 NIZAMUDDIN WEST
NEW DELHI - 110013 INDIA
TEL 697333 / 611128

لو أنك ذكرت في إحدى التجمعات تلك السنن المعروفة فلا أحد يحسّ بغرابتها ، أمّا إذا خضت في ذكر السنن الأخرى ، كسنة التفكّر ، وسنة الاعتبار ، وسنة الصبر ، وسنة الإعراض ، وسنة النصح ، وسنة الدعوة ، ترى الإعجاب قد بدا في عيون الناس ، كأنك تعرض عليهم أمراً غريباً .

يقول النبي ﷺ : « **بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء** » .

إن هذا الحديث يتناول غرابة الدين ، وليس المراد بذلك أن الناس جميعاً سيتركون الصلاة ، أو سيختفي المؤدّون لفريضة الحج ، كيف ذلك وقد ثبت عن طريق أحاديث أخرى ، بأن مقيمي الصلاة والمتمسكين بالصيام سيظلون على وجه الأرض إلى أن تأتي القيامة .

الناشر

الرسالة للإعلام الدولي

٧ ش الشيخ محمد النادي ـ مكرم عبيد ـ مدينة نصر

✆ ٢٦٢٢٣١٠٥ - ٢٦٢٨٤٩٩ -- ٢٦٢٢٨٤٠